

أحلام بشارات*

الفلسطيني في عزلته نقار خشب لشجرة حياته

يمضي في هذه الساعة المتأخرة من الليل، في هذا الجو العاصف؟ فهو موضوع آخر، فالبشرية فجأة توقفت عن التفكير في وجهتها، حتى ليبدو كأنها لم تكن، قبل هذا الوباء، زاهبة إلى أي مكان، وهذا مثير للعجب! من الخارج الإرادة صفر، ومن الداخل الإرادة ١٠٠ على ١٠٠، لكن لا هذا ولا ذلك حدث، فما أحدثه الوباء لا يصنّف على أنه اختبار إرادات على عكس ما قد يبدو فعلاً. فما يبدو فعلاً أنه حقيقي يمكن الشك فيه أيضاً، وهذا على الأقل فيما يخص الفلسطينيين والاحتلال الإسرائيلي، أمّا فيما يخصني بشأن ما يجري بين الفلسطينيين والاحتلال الإسرائيلي، فعزلتي ما زالت تواصل سيولتها العذبة في اليوم السالب السادس عشر، بعد مضي شهر ويومين. هذا الغطاء الفانتازي الكثيف الذي أمّنه لي الفايروس، كي أنسحب خلف باب بيتي، ومن دون لوم، يضع كل شيء تحت عدسة الشك، ومن داخل هذا الشك أصبح كل ما يحدث خارج المنطق، إنما يحدث بشكل مضاعف لغياب المنطق، لكن، وللمفارقة، تتم محاكمته بالأدوات القديمة -

بعد شهر من العزلة التي فرضها الوباء، بدا الأمر كأن الوقت حان لأبدأ كالجميع بالتذمر. وإن كان هناك دواء يُسكت هذا التذمر إذا ما بدأ، فهو دواء "الاعتیاد"، فأبدأ، في حركة استباقية مضادة، بالاعتیاد على خلق المسافات، واستبدال الصمت بالكلام، ثم يصبح الاعتیاد نفسه لغة. وأول صفات الهيئة أن تمتلك الملامح، وأول الملامح الصوت، وصوت الاعتیاد الصمت، وهكذا، في تطور سريع ودراماتيكي، أعطني صوتاً، ودعني أصرخ بصمت، فيعلم العالم أن هذه العزلة أصبحت حياة!

يستطيع الرائي، من الخارج، رؤية الصورة وهي تمّحي ثم تختفي تماماً، لكن جميع ما يشغل بال السائق، من الداخل، هو أن هناك ضباباً يتكاثف فوق زجاج سيارته، وأن الأمر بات مرهوناً بقراره هو عندما يبدأ بتحريك المسّاحتين فتفككان الهواء المتكاثف، وتنكشف أمامه الرؤية، أو أن يوقف سيارته فيوقف رحلته. أمّا غاية الذهاب: إلى أين

* روائية وكاتبة فلسطينية.

على شرفة بيت آخر من دون طابو لأنه يقع في المنطقة "ج". هذه فلسطين وهذه فلسطيني! وهما محتلتان، إلا إن اتفاق أوسلو مع الاحتلال أعطى كل مكان في فلسطين حرفاً غير الآخر، فهل أحدثت هذه الحروف فرقاً في طعم العزلة في فمي وفم جارتني الفلسطينية؟

لم تجعل العزلة جارتني، لو أصابها الفيروس، أكثر قوة مني، ولم تجعلني أكثر ضعفاً منها. فنحن الاثنتان ما زلنا مثلما نحن، حتى لو أصبنا بهذا الوباء كفلسطينيتين، غير أننا نحمل هويتين بلونين مختلفين، فواحدة خضراء والثانية زرقاء، والحرفان مختلفان، فهي "ج" وأنا "أ"، أما العدد، فسيعدّ الفلسطينيون والإسرائيليون جارتني في عداد مجموع الإصابات بالوباء، مرتين، وسيصبح رقمها مضاعفاً لأنه يُعدّ مرتين، مرة لدى وزارة صحة الاحتلال الإسرائيلية، ومرة لدى وزارة الصحة الفلسطينية. وفي مقابل رقمها سأساوي نفسي لكنني سأنقص النصف، غير أن هذا لن يقلل من حجم عزلتي، إذ ستظل عزلة مكتملة ومتباهية بنفسها، فهي ربما تساوي عزلة جارتني، وربما تتقدم عليها بحسب حبي لهذه العزلة وامتتاني لها، بل ربما تتقدم جارتني عليّ فتزيد عزلتها أضعافاً لو وقّعت في غرامها وربما يزيد امتنانها على امتناني. أنا وجارتني "الفلسطينية" في منافسة قوية على الانتماء إلى عزلتنا الطارئة بسبب الفيروس الذي أعلنت أولى حالاته في ووهان الصينية في الأول من كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٩، وعلى الانتماء إلى داخل العزلة الطارئة والأطول عمراً في العصر الحديث، والتي سببها الاحتلال الإسرائيلي للفلسطينيين في

أدوات ما قبل الفيروس - فهل هناك منطوق يحمي هذه الصورة مثلاً؟
في صباح اليوم الأول (٢٣/٣/٢٠٢٠) لإغلاق أبواب البيوت على أصحابها، لتوفير الحماية لهم من عدو غير مرئي، واستجابة لدعوة الحكومة الفلسطينية، تفتحم قوة احتلال مكونة من ١٥ إلى ٢٠ مجنّداً ومجنّدة، بلدة سنيريا، قضاء قلقيلية، وتعتقل مواطنين من البلدة: علاء صادق وممدوح برّي.
سألوا علاء: عندكم كورونا في البيت؟
وبعد أن أجابهم بالنفي طلبوا منه تجهيز نفسه للاعتقال.

منظر الكمامات التي تحمي وجوه بعض الجنود، علاوة على البنادق التي ترافقهم لحمايتهم، في مقابل صورة الفلسطيني الذي دخل في عزلته وهو أعزل، والذي سلّم نفسه لجنود الاحتلال، ومن دون كمامة تحميه، واقتيد إلى المجهول غير المحمي، يضاعف صورة الخوف لدى المحتل، ويزيد في الأدلة التي تجرّمه، بينما الفلسطيني، في صراعه مع الاحتلال، هو هو، ماضٍ في عزلته منذ سنة ١٩٤٨، مثلي تماماً، منذ تاريخ ميلادي في سنة ١٩٧٥، إلى الرقم صفر، وصولاً إلى الأرقام السالبة.

إنني على نحو شخصي، ومنذ اليوم الأول للعزلة، كأني، أنا وحياتي، في مهب الريح، أمّا ما يجب أن تكون عليه لاحقاً هذه الحياة فموضوع أوّجّل التفكير فيه!

والفلسطينيون وأحلامهم والاحتلال وأطماعه، هل هذا موضوع يمكن تأجيل التفكير فيه؟

تحدث عزلتي في بيت مساحته ١١٠ أمتار، بطابو مختوم من سلطة الأراضي الفلسطينية في مدينة رام الله، وبشرفة تطل

فكرت في أن أحرر بقعة صغيرة من هذه الأرض على طريقي، أن أستصلح قطعة منها، وأبني عليها بيتاً من خشب أزرع أمامه شجرة كف الأسد التي ستصعد شاهقة لو سقيتها ماء وسقتها السماء شمساً، وأربي كلباً كنعانياً وبقرة من نوع هولشتاين ببقع سوداء وبيضاء موزعة على سطحها بشكل لا تشبهها فيه أي بقرة أخرى على سطح الأرض، وأدعو إلى هذا المكان فنانيين من أماكن مختلفة من العالم، يساندون المزارعين في قطف الثمار، وزراعة البذور، وجرّ الحشيش من المستنبت، فيساندونني ويساندون أنفسهم، ويصبحون كما الفلسطيني في أصل الحكاية، نقار خشب لشجرة حياته.

كنت أريد أن أسعى لتأسيس عزلة فنية في بقعة أرض يهددها الاحتلال، وأسميها باسم شجرة الحياة، وأجعلها متاحة بكل ما فيها من الأفكار والناس لاختبارات الريح والحرّ والذباب والناموس والأفاعي والأعشاب والفطر الموسمي وطيور الشنار والغزلان، ومقارعة الاحتلال الذي يقارع المزارعين في حقولهم، ويهددهم على الدوام بالطرد، لكن الفيروس جاء، وسرعان ما توقفت هذه الخطة وغيرها من الخطط، فلففت خطة المجابهة بالفن كورقة برودة وحولتها إلى بيت بابه مغلق داخل عمارة مكونة من ثماني شقق. غير أن سيلان ماء شتاء ٢٠١٩ - ٢٠٢٠ الكثيف فوق سطح العمارة سبّب رطوبة بالغة في سقف شقتي التي تقع في الطبقة الأخيرة من المبنى، وكلما عاينت الرطوبة وأنا أحرق في العزلة، خفت على هذه العزلة من أن تتشقق، وكلما خرجت إلى البلكون لأطل على عزلة جارتني الفلسطينية، خشيت على حرفينا أن يتشققا. وتساءلت هل قسّمنا هذه العزلة

١٥ أيار/مايو ١٩٤٨، وهذا كله طبعاً من دون أن تدوّن السلطة الفلسطينية ذلك على أنه رقم جديد في الإصابة، ولا الاحتلال الإسرائيلي وهو يتخلى عن فلسطينية يعدها ولا يقدم لها العلاج، مع أن قوانينه المدنية لا تمنعه من ذلك، فتصل إلى جارتني رسالة مسجلة على هاتفها النقال الذي يحمل شريحة لشركة سيلكوم: أنت مصابة، احجري نفسك في بيتك.

قال صديقي إن هذا الوباء جاء تحديداً ليخرّب خطته هو، فقد تعرّف إلى صبية قبل أيام فقط من انتشار المرض، وأراد أن يبدأ معها قصة حب. هكذا يفعل صديقي دائماً، يقرر أن يبدأ قصص حبه، لكن، هذه المرة، وبدلاً من أن يلتقيا في مقهى ساعدته آخر مرة في اختياره، انقلب كل شيء فجأة، فاضطر إلى أن يتسلل إلى بيت عزاء والدها الذي شاءت له الأقدار أن يموت في هذا الزمن الصعب، كأن الوباء جاء ليخرّب خطة الأب شخصياً: كيف تنتهي حياته! تخطى صديقي قرار الحكومة الفلسطينية ليثبت لحبيبته المرتقبة أنه جاد جداً في هذه القصة، وقد تصل حديثه إلى أن يصبح عرضة للخطر لو تطلّب الأمر، فعاد مساء من بيت العزاء، إلى البيت، بآلام شديدة استمرت يومين، فاضطرت عائلته إلى حَجْره في غرفته ١٤ يوماً، وهكذا انتهت قصة الحب، على نحو مأسوي، قبل أن تبدأ. كانت خطتي قبل الوباء تتلخص بأن أخذ قطعة أرض صغيرة في قرية الجفتك الزراعية على الحدود الغربية لنهر الأردن، في الأغوار الفلسطينية المهدهة أراضيها بالمصادرة، حيث ولدت وأنفقت طفولتي في زراعة الذرة والفاصولياء، وقبلها أنفقت عائلتي أعوامها، في زراعة الملوخية.

ثم ينشر نادي الأسير تساؤل والدته الأسير الشهيد ثائر البرغوثي:

– "هل تعتقدون أنه استشهد اليوم فقط؟" وتضيف:

– "١٨٨ يوماً تركوه في الزنازين.. هذه مش شهادة يعني؟"

وثمة رسالة أخرى تقول إن الاحتلال

يصيب شاباً بحجة تنفيذ عملية دهس وطعن قرب مستعمرة معاليه أدوميم، ثم تصل رسالة تعلن فيها وزارة الصحة الفلسطينية استشهاد شاب بعد إصابته برصاص الاحتلال على حاجز الكونتير، والرسالتان لا تذكران اسم الشهيد، وهو الشهيد إبراهيم هلسة. أما بالنسبة إلى الحواجز، فهناك الآن حواجز أطلق عليها الفلسطينيون اسم حواجز المحبة، كي يميزوها من حواجز الاحتلال، إلا إنها، وهي الشبيهة بما ارتسم على مدار أعوام في واقع الفلسطينيين وعدب حركتهم، وهم في طريقهم خارج بيوتهم، تشبه أيضاً حواجز الاحتلال.

لقد سمى البعض هذه العزلة مركباً، وقال إنه سيغرق هذه المرة بالفلسطينيين والإسرائيليين معاً، إذ ما زال مركب "مهبّ الريح" يحكمه من حكم مركب "الطريق"، لكن لا الطريق ولا مهبّ الريح، فيما يتعلق بالفلسطينيين أو الإسرائيليين، سيؤدي إلى حل. غير أن البشرية كلها في مركب واحد تشغل المخاوف جميع من هم في داخله، ولو كان من يقوده رجل سياسة أو اقتصاد، لربما لا يشغل باله بغرق من فيه. أما لوقاده شاعر، فلربما حلم بأن ينجو الجميع، ثم ستتاح الفرصة للجميع لأن يقتتلوا ثانية، فيحلم الشاعر مرة ثانية بأن ينجو الجميع مرة أخرى، فأى شاعر يستطيع أن يعيش من

الجديدة، بعد أن قسمنا الاحتلال داخل عزلتنا القديمة؟

كنت ذاهبة إلى خلق العزلة في أخفض بقاع الأرض، محاولة إيجاد شكل من أشكال المقاومة؛ عزلة لا تقاوم لأجل حياة فرد مثلما يحدث الآن، بل فرد يغامر بنفسه لأجل جماعته التي هي الفلسطينيون في شتات العالم، وسكان العالم في شتاتهم وغربتهم عن وجهاتهم. فمنذ احتلال ١٩٤٨ وعزلة الفلسطيني ما زالت تتشكل، وهي في زمن الوباء تبدو أكثر وضوحاً، فتأخذ الشكل الذي لم يبدُ في البداية أنها ستذهب إليه. إن عزلة الفلسطيني تشبه خلية النحل التي تبدأ دائرية ثم تصبح سداسية.. لأن الحرارة الناتجة من نشاط النحل الذي يضرب به المثل في النشاط، يذيب الشمع فيزيح الشكل عن مساره، ثم يكتسب العسل دلالاته من الشمع، بل يصبح جزءاً، في حال الملكة وغيره، من مركبه، فأذهب إلى البائع قائلة: أريد عسل شمع الملكة.

إننا الآن شعب يأكل عزلته. بدوت نحلة دوّرت الدائري وأنتجته في شكل سداسي، لكنني لم أبتعد عن الغاية، بل حتى جارتني الفلسطينية لم تكن إلا جزءاً من هذا البناء، إنها أحد أضلاع الشكل. وعلى عمق ٢٥٠ متراً تحت سطح البحر، هناك مكان ملائم لعزلة عميقة أزرعها كقنبلة تفجر الاحتلال من ناحية، وتهرب طريقاً لممارسة الحياة من ناحية أخرى.

الآن أنا هنا، في مدينة رام الله، على ارتفاع ٨٨٠ متراً فوق سطح البحر، وفي حافظة هاتف الجوّال تتكوّم في ٢٢/٤/٢٠٢٠ هذه الأخبار: استشهاد أسير في سجن النقب في إثر تدهور حالته الصحية،

أقف على شرفتي وأطل على شرفة جارتني
 "الفلسطينية" وأفكر في كيف أن هذه العزلة
 الإجبارية لم تسبب لي الدهشة، ولم تُشعرنني
 بالخوف من العيش فيها أكثر. فالإنسان الذي
 يأتلف مع خوفه، يصبح فيما بعد إنساناً
 جديداً. ■

دون أحلام وناس يتعرضون للمخاطر ثم
 ينجون بفضل خياله؟! ولو فكّر إنسان واقعي،
 مثلما فكر أحد الأصدقاء، لاقتراح أن يحمل
 المركب الأغبياء فقط، لأنهم وحدهم القادرون
 على أن يبدأوا من جديد من دون أن يحرّموا
 البداية قوتها.

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

فضائل القدس: دراسة تحليلية مع تجميع لنص كتاب "فضائل بيت المقدس" للوليد بن حمّاد الرملي

سليمان علي مراد

١٧٤ صفحة ١٢ دولاراً

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

الطب الشرعي في فلسطين دراسة أنثروبولوجية

سهاد ظاهر - ناشف

٣١٤ صفحة ١٦ دولاراً